مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (41) العدد (3)2019
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (41) No. (3) 2019

ظاهرة الخوف في شعر عُبيد بن أيوب العنبري

د. نزيهة طه *

(تاريخ الإيداع 13 / 2 / 2019. قبل للنشر في 22 / 5 / 2019)

ملخّص

إنّ القارئ المتمعن في أدب الصّعاليك عامة، يجد أن الظروف القاهرة التي كانوا يعانونها شكّلت منعطفاً خطيراً في حياتهم؛ فقد عانوا النّبذ والتّشرّد، وفقدوا الأمن السياسي والاجتماعي والاقتصادي، فعاشوا اغتراباً ضاغطاً، انعكس عليهم بشكل أو بآخر، مما أدى إلى تأزم نفسيٍّ، ظهر بشكل جليّ في أحاسيس مشتّتة، ومشاعر حائرة، وقلقٍ دائم، وخوفٍ بادٍ في ثنايا أشعارهم؛ في أساليبهم التعبيرية والفنية.

وهذا ظهر جلياً – وبشكل لافت – في شعر عُبيد بن أيوب العنبريِّ، الذي تحوَّل الخوف عنده إلى ظاهرة مرضيّة مخيفة، فأردنا أن نتبيَّن أثر هذه الظاهرة في إخصاب خياله، وإثراء تجربته الشعرية.

الكلمات المفتاحية: عُبيد بن أيوب العنبري، الخوف، القلق، الاغتراب.

* مدرِّسة ، قسم اللّغة العربيّة، كلّية الآداب، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (41) العدد (3)2019
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (41) No. (3) 2019

The phenomenon of fear in the poetry of Abyed Ibn Ayyub al- Anbary

Dr. Naziha Taha*

(Received 13 / 2 / 2019. Accepted 22 / 5 / 2019)

□ ABSTRACT □

The reader Who reads steadily the Begger Literature , ingeneral , finds that the difficult circumstances which they were suffering from formed adangerous change in their life. They suffer from rejection , homelessness and they lost the political , social and economical safety.

They lived a compressed expatriation which reflexed on them completely that led to a psychological crisis that appeared clearly in dispersed and continuous confusion. as well as , a fear seen in the contents of their projects and in their expressive and artistic styles. This is shown clearly in the poetry of Abyed Ibn Ayyub al-Anbary whose fear changed to afearful sickening phenomenon. We wanted to show the effect of this phenomenon in richening his poetical experience.

Key words: Abyed Ibn Ayyub al-Anbary – fear – confusion – expatriation.

***Professor , Arabic department, Faculty of Art, Tishreen university, lattakia, Syria.**

مقدّمة:

الخوف حالة انفعال مقلق، تعتري النَّفس حين يتوقع صاحبها الأذى أو الضَّرر من مصدر معيَّن محدَّد، وهذا المصدر يُحدث في الخائف تغيّرات في النَّفس والجسد ونبرات الصّوت، تتبعها ردود فعل قد تكون سلبية منكفئة، أو إيجابية متحدِّية.

والإحساس بالخوف من المشاعر التي تنتاب الإنسان والتي صورها الشاعر العربي القديم، تبعاً للظروف المختلفة التي كان يمرُّ بها. وقد تعدَّدت دواعي الخوف، وتنوعت بواعثه لديهم؛ فنجد في ثنايا أشعارهم الخوف من الله وعقابه، والخوف من أولي الأمر، والخوف من الفقر، والخوف من الزمن ونوائب الدَّهر، والخوف من الموت، والخوف على الأبناء والبنات، والخوف الذي كان ينتاب الشعراء الصَّعاليك بصفة خاصة من حياة التّشرد والضّياع في مجاهل الصّحراء. فقد كان الخوف ظاهرة عامّة وعنصراً مشتركاً بين جميع الصَّعاليك، وعبيد بن أيوب العنبري ممَّن اتّسم شعرهم بالحديث عن الخوف بشكل خاص، وهذا خلَّف لديه شعوراً عميقاً بالتّمزّق والتّشرد والضَّياع. وقد انعكس ذلك على شعره، فكنا نلمح في جنباته، وبين ثناياه أثر هذه الظاهرة في معانيه، وصوره، وأساليبه الفنية. فقد تبلورت تجربته المريرة من خلال نتاجه الشعري، الذي أفصح عن نفسيَّة مضطربة يعتريها القلق والخوف بشكل لافت.

ومن هنا، رأينا أن يقوم البحث على الدِّراسة النَّصيَّة، التي تتكئ على معطيات المنهجين النَّفسي والاجتماعي، مع الاستعانة بأي منهج نقدي آخر يخدم هذه الدِّراسة، التي من شأنها الكشف عمَّا يمثله شعره من تجربة في الحياة تخلق حالة نفسيَّة سائدة، توحي بها أساليب التَّعبير المختلفة.

التعريف بالشاعر:

"هو من بني العنبر، وكان جنى جناية، فطلبه السُّلطان وأباح دمه، فهرب في مجاهل الأرض، وأبعد لشدَّة الخوف، وكان يخبر في شعره أنّه يرافق الغول والسَّعلاة، ويُبايتُ الذّئاب والأفاعي، ويأكل مع الظباء"[1].

حياته يشوبها الغموض، والمصادر القديمة تضن بأخباره، وتجمع على أنه جنى جناية فطلبه السُّلطان، وأباح دمه، فهرب في مجاهل الأرض، وعاش مُشرَّداً طريداً، عايش وحوش الصّحراء، وتاه في مجاهلها، وهذه الحادثة شكّلت منعطفاً في حياته [2].

ويقول البكري:"وعبيد شاعر إسلامي، وكان لصّاً مُبِّراً فنذر السُّلطان دمه، وخلعه قومه، فاستصحب الوحوش وآنس بها، وآنست به، وله في ذلك أشعار كثيرة، وكان يزعم أنّه يرافق الغول والسَّعلاة"[3].

"ولم تحدد المصادر طبيعة لصوصيَّته، ولم توضح الميدان الذي كان يمارس فيه هذه الحرفة أو الهواية... ولكن هذه الصّفة أُلصقت فيه في أكثر من مصدر، فقد وصفه الجاحظ باللِّص، وكذلك المبرِّد، وهو عند صاحب منتهى الطلب من اللصوص، وكذلك يسميه ياقوت الحموي لصّاً"[4].

---

[1] الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، 2003 م: 771/2. ومعجم الشعراء المخضرمين والأمويين، د. عزيزة فوال بابتي، دار صادر، بيروت، ط1، 1998: 270.

[2] الحيوان ، الجاحظ، تحقيق عبد السّلام هارون، مطبعة البابي الحلبي، ط2، 1965: 172/6، 264.

[3] سمط اللآلي في شرح أمالي القالي وذيل الأمالي، أبو عبيد البكري، تحقيق عبد العزيز الميمني، دار الحديث، بيروت، ط2، 1984 م: 384/1.

[4] منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن المبارك، تحقيق د. نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط1، 1999م:223. وشعراء أمويون، د. نوري حمودي القيسي، جامعة بغداد، 1976 م: 195/1.

ويُعقِّب الدكتور القيسي على من وسمه بصفة اللصوصية قائلاً:" إنَّ الصُّورة التي يقدِّمها شعره صورة لم أجد في طواياها ملامح الشَّرِّ، ولم ألتمس في بواطنها ما يظهره بهذه الخصلة، ولم أستطع حتى الوقوف عند بادرة واحدة من المبادرات التي تلوِّن أعماله بأي لون من ألوان الإيذاء، أو تصبغها بنوازع التّسلط والاستيلاء"[1].

ونوافق الدكتور القيسي فيما ذهب إليه، فلم نلمح في جنبات شعره ما يدل على نوازع الفتك، أو الشَّرِّ، أو التَّسلط. وقد صُبغ شعره بنوازع الخوف، والقلق، والاضطراب، التي بدت جلية في أفكاره، ومعانيه، وألفاظه.

مظاهر الخوف عند عُبيد بن أيوب العنبريِّ:

- الخوف من السُّلطة السياسية:

إنَّ الخوف من ملاحقة السُّلطة جعل الخائف يسيح بوجهه في الأماكن المقفرة، تترامى به الصَّحارى، وتتقاذفه العقيان والوديان بوحشتها ومجاهلها. ونجد صوراً متعدّدة للخوف من الولاة أو الخلفاء في شعرنا القديم، أبدع الشعراء في تصويرها بغضِّ النَّظر عن جرائرهم التي ارتكبوها.

وعبيد بن أيوب يصور خوفه من السُّلطان في صور متنوعة، تظهر مدى اضطراب نفسه، وقلقه، وتوجسه، وحذره من كلِّ النَّاس الذين فقد الثِّقة بهم؛ إذ كان يُخيل إليه أنَّ النَّاس يتسارعون للنِّفاق عند السُّلطان والتَّبليغ عنه، يقول [2]:

لَقَدْ خِفتُ حتَّى خِلْتُ أنْ ليسَ ناظِرٌ إلى أَحَدٍ غيري فكدتُ أَطيرُ

وليسَ فمٌ إلاَّ بسرِّي مُحدِّثٌ وليسَ يَدٌ إلاَّ إليَّ تُشيرُ

فهو يؤكد – بصيغة الماضي النَّقريريَّة المسبوقة بالتَّوكيد – شدَّة خوفه وتوجُّسه (لقد خفتُ). ويأتي النَّفي المتكرِّر (ليس فم، وليس يدٌ)، ليشي أيضاً بمعاناته وشدَّة هلعه، وكأنَّ النَّاس كلَّهم أصبحوا عيوناً عليه. وتأتي الصُّورة الكنائيَّة أيضاً (كدتُ أطير)، لتوحي بهذه المعاني.

ويترجم – في أبيات أخرى – شدَّة خوفه وتوجسه حتى من أقرب النَّاس إليه، لذلك نجده يُؤثر التَّشرد والبعد على العيش بين أناس لا يؤمن جانبهم، يقول [3] :

لَقَدْ خفتُ حتَّى لو تَمرُّ حَمامةٌ لَقُلْتُ عَدُوٌ أو طَليعةُ مَعْشَرِ[4]

وَخِفتُ خليلي ذا الصَّفاءِ وَرابَني وقِيلَ فلانٌ أو فُلانةُ فاحْذَرِ

فأَصْبحتُ كالوَحشِيِّ يَتْبَعُ ما خَلا ويترُكُ مأنوسَ البلادِ المُدعثِرِ

إذا قِيلَ خيرٌ قُلْتُ هَذي خديعةٌ وإنْ قِيلَ شرٌّ قُلْتُ حَقٌّ فَشَمِّرِ

---

[1] **شعراء أمويون، د. نوري حمودي القيسي: 195/1.**

[2] **ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، د. محمد نبيل طريفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004 م: 395/1.**

[3] **المصدر نفسه: 395/1-396.**

[4] **الطَّليعة: القوم يبعثون لمطالعة خبر العدوّ.**

هنا تنهض أساليب التَّوكيد والتَّقرير والتَّكرار، لتؤكد مشاعر الخوف المسيطر على نفس الشاعر (لقد خفت، وخفت خليلي). ويأتي الفعل (رابني) يحمل معنى الشَّك المتأتي من الخوف، وكذلك الفعل (احذر)، والحذر يتولَّد من التَّوجس والفزع، كلّها أفعال تحمل في دلالتها معاني الاضطراب النَّفسي، الذي يتبلور في خوفه الجليّ من خلال شعره. ويؤدي الطباق هنا (وحشي، مأنوس، خير، وشرٌّ) قدرة تعبيرية إيحائية، مثيرة للانفعال من حيث توضيح التّباين السَّطحي والعميق في الصورة من خلال الجمع بين الشيء ونقيضه.

وسبق أن ذكرنا، أنَّ عبيد بن أيوب"جنى جناية فطلبه السُّلطان، وأباح دمه فهرب في مجاهل الأرض، وأُبعد لشدَّة الخوف... وقد تحمَّل الشَّاعر من جراء هذه الجناية عواقب كثيرة... تمثَّلت في خلعه من القبيلة، وهي عقوبة صارمة وجزاء مؤلم... وقد وجد نفسه مخلوعاً لا يجد من يعينه على تخفيف غربته، وتبديد همومه، وإشعاره بحالة الاطمئنان التي يتوق إليها"[1].

وحاله هذه حال كثير غيره من المطاردين الذين"ترك الخلع في أعماقهم شرخاً عميق الأثر، سجلته أشعارهم المشحونة بأشجان الغربة ووطأة الوحدة النَّفسية، وقسوة الحرمان من أنس الدَّار، بل إنَّ سلوكهم نفسه كان يخفي – وراء الاستهانة بالحياة والمغامرة الفتاكة المثيرة – سخرية مريرة بالحريَّة الفردية، وشعوراً عميقاً بالتَّمزّق والتَّشرّد والضَّياع"[2].

لذلك حاولوا أن يعزِّزوا وجودهم من خلال تشردهم، من أجل تأكيد كرامتهم. ومن هنا، نشأت الصُّحبة بينهم وبين حيوانات الصحراء، وكثر الحديث عن الصُّحبة مع الذئب وغيره.

بيد أنَّ هذا التَّشرد انعكس سلباً على نفس عُبيد بن أيوب، وخلَّف فيها آلاماً ممضَّة، وشعوراً مُرَّاً بالوحدة والوحشة، إثر تخلي قبيلته عنه وحكمهم الجائر عليه بالطَّردِ والإقصاء. ممَّا جعل الإحساس بالاغتراب يسيطر عليه، ويتبلور في ثنايا شعره؛ في معانيه وأساليبه الفنِّيَّة، وأمرٌ طبيعي أن يخنع أفراد قبيلته أمام سلطة جائرة، تضرب بيد من حديد، وتحكم بحدِّ السّيف. وربّما تمنّى عُبيد أن تتحرّك في نفوس هؤلاء بوادر ثورة تستأصل شأفة هؤلاء الذين يتحكمون في رقاب العباد، دون رحمة أو شفقة.

ولا غرو أنَّ هذا البعد، وهذا الإقصاء الجائر جعلاه يحسُّ بعدم كفاءته وأهميته، وغدا وحيداً تتقاذفه المفازات والسهوب، فأضحى كالسَّهم الذي لم يرش، أو ينصل، حتى أصبح كالعصا في قعر الكنانة مفرداً لا قيمة له، يقول [3]:

وأصبحتُ مِثلَ السَّهم في قَعْرِ جَعْبَةٍ نَضيَّاً نضاً قدْ طالَ فيها قلاقِلُهْ [4]

وأَصبحتُ تَرميني العِدى عَن جماعةٍ على ذاكَ رامٍ مَنْ بَدَتْ ليْ مقاتِلُهْ

فهذه الصُّورة تكرِّس المعاناة ومرارة الوحدة التي يشعر بها، وتشي بعبثيّة وجوده ما دام دوره في الحياة قد توقّف. فالمشهد يظهر صورة الانقطاع جليَّة واضحةً بين الشَّاعر وبني قومه.

وغير هذا، فقد ولَّد الشُّعور بالوحدة لديه إحساساً ملازماً بالحذر والتَّرقب، خشية غدر الآخرين، يقول[5]:

---

[1] شعراء أمويون، د. نوري حمودي القيسي: 1/195-196.

[2] قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، د. بنت الشاطئ، دار المعارف، مصر، 1970 م: 43.

[3] أشعار اللصوص وأخبارهم، جمع وتحقيق عبد المعين الملوحي، دار الحضارة الجديدة، بيروت، ط1، 1993 م: 1/224-225. وانظر: ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي: 1/403.

[4] السَّهم النّضي: الذي لا نصل فيه. قلاقله: اضطرابه.

[5] أشعار اللصوص، عبد المعين الملوحي: 1/224-225. وديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي: 1/405.

قَليلُ رُقادِ العَينِ تَرَّاكُ بَلْدةٍ إلى جَوزِ أُخرى لا تَبِنُّ منازِلُهْ [1]

على مثلِ جَفنِ السَّيفِ يرفَعُ آلَهُ مُصاصاتُ عِتْقٍ وهو طاوٍ ثمائِلُهْ [2]

تدلِّل الصورة الكنائية – هنا – على حالة الخوف والحذر التي يعيشها (قليل رقاد العين)، لتردفها صيغة المبالغة (تَرَّاك)، لتوحي بكثرة ارتحاله على الرّغم من تذمُّره وضيقه من هذه الرحلات المتواصلة. ويأتي التشبيه في البيت الثاني ليشفَّ عن مدى الإنهاك الذي أصابه وناقته، ومدى الإعياء الذي لحق بهما نتيجة طول الأسفار، فقد أصبحا (كجفن السَّيف)؛ إذ دفعه الخوف والحذر إلى التَّنقل من مكان إلى آخر، لأنَّه لا يأمن غدر النَّاس.

وهنا يزداد الموقف حدَّة، ولاسيَّما أنَّ الشَّاعر وحيد في هذه القفار، تتكالب عليه هواجس الوحدة والخوف، وتقلقه حالة التَّرقب الدَّائم، فيصل به الحال إلى شيء من الإحباط أو الإحساس بخيبة الأمل والضياع،"لقد كان إحساس عُبيد بن أيوب العنبريِّ بالضياع شديداً حين هجر الحياة الاجتماعية قهراً، والتجأ إلى مسارح الوحش في الصحراء... فحاول أن يجعل من الحيوان وتألفه بدائل للعيش الجماعي القبلي الذي يسيطر على أحاسيسه"[3]، يقول [4] :

أَراني وَذِئبَ القَفْرِ خِدنَينِ بَعدما تَدانا كِلانا يَشْمَئِزُّ ويُذْعَرُ

إذا ما عوى جَاوبتُ سَجعَ عُوائِهِ بِترنيمِ مَحزُونٍ يَموتُ ويُنْشَرُ

تَذَلَّلْتُهُ حَتَّى دَنَا وأَلِفْتُهُ وَأَمكنَنِي لو أَنَّني كُنتُ أَغْدِرُ [5]

ولِلهِ دَرُّ الغُولِ أيُّ رفيقةٍ لِصَاحبِ قَفْرٍ خائِفٍ يَتقَتَّرُ [6]

يتوق الشَّاعر إلى الألفة ولمِّ الشَّمل، فيتَّخذ من الذئبِ صديقاً، ومن الغول رفيقاً، علَّها تكون بدائل تعويض عمَّا يحسُّه من وحشة واغتراب، وعمَّا يشعر به من خوف وذعرٍ في مجاهل الصحراء المترامية.

وتوحي الأساليب الفنيَّة المتنوِّعة بهذه المعاني، فتنهض (واو المعية)، وصيغة التثنية (خدنين)، و (نا) الدّالة على الفاعلين، لتؤكد رغبته في العثور عمَّن يؤنسه ويبدِّد خوفه وهلعه. فهو لا يتوانى عن إجابته حينما يسمع عواءه (إذا ما عوى جاوبت سجع عوائه). وقد يحدِّثه، ويقيم حواراً معه. وإدارة الحوار مع من لا يعقل توحي بمدى الوحدة التي تطبق على الشَّاعر. وهذا ما دفعه إلى أن يتذلَّل له كي يألفه، ويطمئن إليه، وهنا تتكرَّس معاناته بقوله: (تذلَّلته حتى دنا).

ويأتي الطباق (يموت، ينشر) ليعمِّق حالة الخوف التي يعيشها "فكل طرف في الطِّباق يجلو الآخر ويكشفه، لأنَّ المقابلة بين معنيين تزيدهما جلاءً ووضوحاً"[1].

---

[1] قليل رقاد العين: قليل النّوم. جوز البلدة: وسطها.

[2] جفن السّيف: قرابه. المصاص: الخالص من كلِّ شيء. العتق: خلاف الرّق. آله: أهله. الثمال: بقية الماء في الحوض.

[3] الاغتراب في الشعر الأموي، د. فاطمة السويدي، مكتبة مدبولي، مصر، ط1، 1997 م: 125.

[4] ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي: 392/1.

[5] تذلَّلته: خضعت له.

[6] يتقتر: يتهيأ للقتال.

أضف إلى ذلك استخدامه الألفاظ الموحية التي تدل على الخوف والذُّعر أيضاً، (القفر، يذعر، محزون، يموت، ينشر، خائف، يتقتَّر).

وتأتي صيغتا اسم الفاعل واسم المفعول، (خائف، محزون) لتدفعا باللفظ إلى أعلى درجات الإيحاء والدَّلالة.

فهو في حاجة إلى الشُّعور بالأمان، والأمان لا يتحقق له إلاَّ إذا كان قويَّاً؛ لذلك نجده يحالف سلاحه كما حالف وحوش الصَّحراء، ليشعر بالقوة والمنعة بعد أن أُصيب بالإحباط وخيبة الأمل في بني البشر، يقول[2]:

أَلَمْ تَرَنَي حَالفتُ صَفراءَ نَبعَةً لَها رَبَذِيٌّ لم تُثَلَّمْ مَعَابِلُهْ

وطالَ احتضاني السَّيفَ حتَّى كأنَّهُ يُناطُ بِجِلدي جَفنُهُ وحمائِلُهْ

وهنا يأتي الاستفهام الإنكاري التَّقريري المثقل بالتَّوجّع، بما يحمل من قسوة التَّجربة، فنراه اتّخذ سلاحه حليفاً، بل احتضنه بكلِّ عطفه وحنانه. فالألفاظ هنا تبرز قدرة الشَّاعر وتفوقه، فهو يختار منها ما يدلِّل على نفسيَّة خاصة (حالفت، احتضان)، فالحلفُ هو التَّعاون والتَّعاضد والاتِّفاق، والحضن هو الصَّدر وما تحمله الكلمة من معاني العطف والحدب والحنان. فسلاحه مكمن الأمن، لذلك يعبِّر عن التصاقه به وعدم مفارقته (يناط بجلدي جفنه وحمائله)، وقد أكّد ذلك بالفعل التقريري (طال) الذي يوحي بالفترة الزمنيَّة الطَّويلة التي لازم فيها سلاحه، ويوحي – في الوقت ذاته – بانعدام الثِّقة في الآخرين، وبالإحساس بالخوف المستمر.

ومن هنا،"فقد جاء شعره صدى قوياً لمخاوف المطاردة التي تنذره بالقتل المتربِّص، وعبَّر في تضاعيفها عن أصداء واضحة، تفيض بإحساسات عميقة بالموت، وتمثل قوى لمخاطره المحدقة"[3].

وكلَّما زادت مخاوفه تنامى شعوره بالحاجة إلى الأمن والأمان، فهو كغيره من المطاردين الذين"عاشوا لمجرد العيش دون مظلَّة وارفة من الأمل، يكتنفهم شعور بضياع حياتهم الاجتماعيَّة وما فيها من علاقات، واستحالة إعادتها من جديد يمثل همَّاً ثقيلاً مؤرِّقاً لهم، ودافعاً شديداً للاغتراب الذاتي نتيجة الإحساس بفقد الهوية الذي خلَّفه هذا النَّبذ"[4]، يقول [5]:

أَذِقْنِي طَعْمَ الأَمنِ أو سَلْ حَقِيقةً عَليَّ فإنْ قامَتْ ففصِّلْ بَنانِيا

وكأنَّ الشَّاعر يتبرأ من أعماله أمام السُّلطان، ويطلب التَّحقيق فيما نُسب إليه، فإن ثبتت براءته فالعفو والأمان في الحياة مطلبه. وصيغة الأمر – هنا – تحمل لهجةً خطابية واضحة، فيها الكثير من الإلزام والتأكيد.

ويقول أيضاً [6] :

---

[1] **شعرنا القديم والنقد الجديد، د. وهب رومية، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1996 م: 169.**

[2] **ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي: 404/1.**

[3] **الحياة والموت في الشعر الأموي، د. محمد بن حسن الزير، دار أميَّة للنشر، الرياض، د.ت: 402.**

[4] **الاغتراب في الشعر الأموي، د. فاطمة السويدي: 125.**

[5] **ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي: 414/1.**

[6] **المصدر نفسه: 403/1-404.**

ولو كُنتُ لا أخشى سِوَى فَردِ مَعْشَرٍ لَقَرَّ فُؤادي واطمَأنَّتْ بلابِلُهْ [1]

وسِرتُ بأَوطاني وَصِرْتُ كأنَّني كصاحبِ ثِقلٍ حُطَّ عنهُ مثاقِلُهْ [2]

من الملاحظ أن الخوف والقلق يثريان عناصر التجربة الشِّعريَّة عند عبيد بن أيوب، ويفجران اللغة بطاقة مستمدة من العجز الجسدي كي تعوِّض نقص الشَّاعر، وينطلق منها إلى رحاب جديدة. فقد استخدم طاقات اللغة وإمكانياتها في الدَّلالة على خوفه، وعدم اطمئنانه، وانشغال ذهنه. فالفعل (قرَّ) يوحي بالرَّغبة الجامحة في الاستقرار والسَّكينة، وقد أتبعه بالفعل (اطمأنت بلابله)، فهو يصرِّح بأنَّ مبتغاه الطمأنينة التي توفر له السَّكينة، وتريح نفسه وذهنه من البلابل والوساوس.

ولعلَّ حلمه يتجسَّد في البيت الثاني الذي يفصح فيه عن أمنية بعيدة المنال؛ هي أن يسير في كلّ مكان آمناً دون رقيب يتتبَّع أخباره. فالشَّاعر يشعر بجفوة بينه وبين مجتمعه، ويحسُّ بلون من الغربة الفاصلة، ثم مسافة – تتسع وتضيق – بينه وبين شاطئ السَّلامة، وهو مدفوع بشوق الحياة إلى الكفاح ضد هذه الغربة.

- **الخوف من الزَّمن:**

لعلَّ من أهم مظاهر الخوف من الزَّمن أو الدَّهر، التي تكرَّر ذكرها في شعرنا القديم هو الخوف من الهرم والشَّيب والموت؛ فالشَّيب والهرم من صور الموت، ومظهر من مظاهره. فلم يخف الإنسان من شيء مثلما خاف من الدَّهر، ولم يتحسَّب لأمر مثلما تحسب من الزَّمن وتصرُّم العمر، فالزَّمن خالد والإنسان حياته قصيرة بالنسبة إلى ذلك الزّمن أو ذلك الخلود [3].

والموت أقلقَ الشَّاعر القديم، وأرهقه المصير المجهول، فعاش دائماً متوجِّساً، يستفيق على غفلةٍ من سعادة وفرح، فإذا بالدَّهر يجبهه بنوائبه ليسلبه ما كان فيه، ويقلب حاله إلى ما يزري به.

" إنَّ المتصفِّح لدواوين شعراء الجاهلية يرى ذكر الموت والدَّهر والقدر يتردَّد في كلِّ ديوان تقريباً، وهذا يدلّ على أنَّ هؤلاء الشُّعراء نظروا إلى الموت نظرة فيها الكثير من الحتمية والفرضيَّة، والاعتراف الشَّديد بنوازل الأقدار، ومدى عجز الإنسان عن إيقاف أجلٍ، أو منع حتفٍ، أو هروب من مصيرٍ محدقٍ"[4].

فالإنسان يتوق إلى وجود أبديٍّ خالد، والموت هو تهديد حقيقي له، وهذا زاد شعوره بفاجعة الموت القاسية وإحساسه بفداحة التجربة التي يعيشها. ولعلَّ في تجربة عبيد بن أيوب العنبري، الذي يعيش الموت في كلِّ لحظة ما يوضِّح ذلك. فهو يترقَّب الموت الذي يتربَّص به، فلا مفرَّ من قدومه، ممَّا يبعث في نفسه شعوراً مستمراً بالقلق، والتَّرقب، والخوف. فنراه يتصوَّر نفسه وقد أصبح ممسكاً به (رهينة) وسط التُّراب والأحجار، غريباً تسفي عليه الرِّياح، يقول [5]:

---

[1] **قرَّ فؤادي: اطمأن. البلابل: الأحزان.**

[2] **صاحب ثقل: صاحب هموم.**

[3] **الزّمان والمكان وأثرهما في حياة الشَّاعر الجاهلي وشعره، د. صلاح عبد الحافظ، دار المعارف، مصر، د.ت: 6/1.**

[4] **المرجع السابق: 79/1.**

[5] **ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي: 397/1.**

إنِّي لأَعْلَمُ أَنِّي سَوفَ يترُكُني صَحبي رَهِينَةَ تُربٍ بينَ أحجارِ

فَرْداً برابيَةٍ أو وَسْطَ مَقبَرَةٍ تَسْفِي عليَّ رياحُ البارِحِ الذَّاري [1]

مشهد مخيف موحش، تتردَّد فيه ألفاظ الموت، لتوحي بقسوة المواجهة، وقسوة المصير الذي سيؤول إليه. وشعور بالوحدة قاتل يثير قلقه بشكل دائم. وهذا ما يوحي به معجمه اللفظي (يتركني، فرداً، رهينة، وسط مقبرة، بين ترب وأحجار). فهو يقرُّ – بأسلوب التوكيد الذي يردفه بصيغة المضارع المسبوق بالتَّسويف – بحتمية الموت مهما طال أجله، (إنِّي لأعلم أنِّي سوف يتركني). وتأتي لفظة (صحبي) لتعمِّق الإحساس بالألم؛ فالموت سيبعده عن أقرب النّاس إليه، ويتركه فرداً وحيداً بين ترب وأحجار. وهنا نحسُّ سلبية المكان ووحشته، فالإنسان"إذا استوحش بالمكان تراه يتبرَّم به، والنَّفس الوجلة حينما تحسُّ خطراً تضيق بالمكان، بل إنَّ صاحبها – نتيجة الخوف – يرى كلَّ شيء فيه معادياً له متربصاً به، فتضيق عليه الأرض على الرَّغم من رحابتها وسعتها"[2].

والموت في حياة الشَّاعر وإحساسه معاً ليس هو فقط واقعة الموت، لكن الإنسان يعيش موتاً مستمراً في كلِّ لحظة، ويبقى دائماً وجهاً لوجه أمام الموت الذي هو ظاهرة من ظواهر الحياة، والحياة لها بداية ونهاية. ويحسُّ الشَّاعر أنَّ الآجال تتفاوت، وقد يقصر العمر، وربَّما يطول، ولكنَّ طوله ليس بديلاً عن الخلود، يقول[3]:

إنْ يَقْتُلوني فآجالُ الكُماةِ كَمَا خُبِّرتِ قَتلٌ وما بالقَتلِ مِنْ عَارِ

وإنْ نَجوتُ لِوقتٍ غَيرِهِ فعسى وكُلُّ نَفْسٍ إلى وَقتٍ ومِقدارِ

هاجس الموت يلاحقه، والخوف منه يساوره، بل يستبدُّ به، ويسيطر على تفكيره بشكلٍ دائمٍ، فينعكس ذلك قلقاً واضطراباً في ثنايا كلماته. فالنَّجاة من الموت لا تعني خلوداً دائماً. والقتل والنَّجاة يفضيان إلى نهاية واحدة، يفرّق بينهما وقت ومقدار لا يعلمه إلاَّ الله. فالموت – إذن – يشغل فكره دائماً، ويقلق نفسه، وهذا ما يؤكده تكرار ألفاظ الموت التي توحي بمشاعر الخوف (إن يقتلوني، آجال، قتل، ما بالقتل، إن نجوت، كل نفس إلى وقت ومقدار). ولعلَّ التكرار – هنا – جاء لتثبيت الدَّلالة التي تلحُّ عليه إلحاحاً شديداً. ولا يخفى علينا ما تشي به أصوات اللين – بامتدادها الصوتي – في هذين البيتين من همٍّ مثقل دائم يجثو فوق صدره.

هذه النَّظرة المتشائمة لازمت الشَّاعر وكثيراً من الشُّعراء غيره، الذين كان لديهم الإحساس بالزَّمن سبباً لشقائهم، وتنغيص حياتهم، وتكدير عيشهم.

- **الخوف من المكان:**

إنَّ حياة التَّشرد التي عاشها الصَّعاليك في مجاهل الأرض، جعلتهم يفقدون الشُّعور بالانتماء الاجتماعي، ويعانون اغتراباً مُرّاً قذف بهم في متاهات الصحراء بين وديانها، وقيعانها، ووحشتها، ومخاوفها. فتأججت في نفوسهم نيران الغربة بصورها المتعدِّدة؛ الذّاتية والاجتماعيّة، والمكانية.

---

[1] **تسفي عليه: تهبُّ عليه بالتُّراب والغبار. البارح: الرِّيح الشَّديدة.**

[2] **خصوبة القصيدة الجاهلية ومعانيها المتجدِّدة، محمد صادق عبد الله، دراسة وتحليل ونقد، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت: 153.**

[3] **ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي: 396/1.**

وقد تبلورت سطوة المكان على هؤلاء الشُّعراء من خلال حالاتهم الشُّعورية التي تترجم مضامين تجاربهم النَّفسية، فتعبِّر عن واقعهم والوسط المحيط بهم.

وترتبط الذكريات ارتباطاً وثيقاً بالمكان بعلاقة مطَّردة؛ فالشُّعراء يأنسون بالمكان، وينجذبون إليه إذا ارتبط في أذهانهم بذكريات جميلة وماضٍ مشرق، ويتبرمون به، وتضيق نفوسهم إذا ارتبط بذكريات مؤلمة موجعة. فالمكان مبعث فرح، أو مبعث حزن، في نفوس الشُّعراء، وعليه فإنَّهم يكوِّنون إزاءه موقفاً إيجابياً، أو سلبياً.

وتمثل الصحراء بفضائها الواسع أهم الأمكنة التي شهدت معاناة الشُّعراء المطاردين، الذين رحلوا إليها مرغمين كتعويض عن فشلهم في علاقاتهم الأُنسيَّة، ممَّا أفضى بهم إلى اغتراب شديد ألجأهم إلى وحشة هذا المكان، بما فيه من مخاوف وأخطار.

وعُبيد بن أيوب أحد هؤلاء المطاردين الذين كُتب عليهم الطَّرد والتَّشرد في مجاهل الصَّحراء، فشكّل المكان عنده عاملاً من عوامل الخوف والهلع. وقد جسَّد خوفه في لوحات متنوّعة، ظهرت حتّى في حديثه عن طيف المحبوبة، فهو حين يصف لنا خيال حبيبته الذي زاره على البعد والنأي قاطعاً الصَّحارى المخوفة، يصرِّح بكونه طريداً، متستراً بقفرة بعيدة، يقول [1]:

وكيفَ تُرَجِّيها وقدْ حالَ دونَها ... مِنَ الأرضِ مَخْشِيُّ التَّنائفِ مُذْعِرُ [2]

وأنتَ طريدٌ مُستسِرٌّ بِقَفْرَةٍ ... مِراراً وأحياناً تصَبُّ فتظهَرُ [3]

فهول المكان تشي به الألفاظ التي تحمل معاني الخوف والهلع، (مخشي، التّنائف، مذعر، قفرة). وبنغمة فيها الكثير من الأسى يقرُّ بأنه يتستَّر بقفرة بعيدة، ولا يلجأ الإنسان إلى التَّستّر إلاّ إذا غالبه خوف شديد، وأعجزته ملاحقة فيها الكثير من الخطر على حياته.

فالصَّحراء عند عبيد بن أيوب تفرِّق الأحباب، وتقترن في ذهنه بالخوف والموت والهلاك. والخوف يتلاقى عند الشَّاعر مع طول السَّفر، ومجاهل الطَّريق، ووحشة الدّرب، فهو يعبِّر عن ذلك بقوله [4]:

خَلعتُ فُؤادي فاستُطيرَ فأصبَحَتْ ... تَرَامى بِي البِيدُ القِفارُ تَراميا [5]

كأنّي وآجالَ الظِّباءِ بقفرةٍ ... لنا نَسَبٌ نَرعاهُ أَصبحَ دانيا [6]

فهو يكنِّي عن خوفه بالجملة التَّقريريّة (خلعت فؤادي)، ويكرِّر هذا المعنى أيضاً بقوله (فاستطير) أي؛ تفرَّق وذهب من الخوف. وهو ينتقل في هذه الأمكنة المخيفة لا يقرُّ له قرار، تتقاذفه البيد واحدة إلى أخرى، وهذا ما أكده المصدر المقرون بفعله (ترامى تراميا). وقد حرص على توضيح صلة القُربى الوشيجة بينه وبين الظِّباء، وهذا يدلِّل على طول

[1] ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي: 394/1.

[2] ترجيها: أي ترجي زيارتها. التَّنائف: ج. التَّنوفة، وهي القفر من الأرض. مخشي: أي يخشى دخولها لهولها.

[3] وأنت طريد: أراد تسير كالطّريدة في القفر.

[4] ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي: 414/1.

[5] استطير: تفرَّق وذهب من الخوف.

[6] آجال: ج. أجل، وهو حين الموت.

المدَّة الزمنيَّة التي عاشها مع حيوان الصَّحراء، حتى ألفها وألفته، فغدت بعضاً من أهله وأقاربه، تعايشا معاً، يؤنس أحدهما الآخر.

ومن الأماكن التي أظهر الشَّاعر تجاهها مشاعر الخوف؛ الأودية والقيعان، وذلك لعمق أغوارها، وشراسة وحوشها، يقول [1] :

ووادٍ مَخُوفٍ لا تُسارُ فِجاجُهُ بركبٍ ولا تَمشِي لَديهِ أراجِلُهْ [2]

بهِ الأسدُ والأَسبادُ مَنْ عَلِقَتْ بهِ فَقَدْ ثَكِلَتْهُ عندَ ذاكَ ثَواكِلُهْ [3]

مشهد مخيف يثير الرُّعب والذّعر، ينطوي على الأهوال والأخطار، وترتبط دلالة الوديان دائماً بالإقفار والانعزال وبالموت المحتَّم كذلك، وهذا ما أفضت به الأساليب الفنِّيّة التي اتكأ عليها الشَّاعر إلى التّعبير عن معاناته المستمرِّة؛ فالتّنكير بقوله (ووادٍ) يعطي إيحاءً بالكثرة والشمولية، ويشي بكثرة تنقله في مثل هذه الأماكن الموحشة. وتأتي صيغة الاشتقاق (مخوف)، لتؤكد صفة الإطلاق والاستمرارية أيضاً. ونجده يعبِّر عن وعورة هذه الطرق وصعوبة السّير فيها بتكراره النّفي (لا تسار فجاجه، لا تمشي لديه أراجله). وتتعمق دلالة الخوف والهلع – في هذا المشهد – حينما يذكر أنواع الحيوانات المفترسة، والطيور الجارحة التي تتوافر بكثرة في هذه القعيان والوديان، وصيغة الجمع توحي بذلك (به الأسد والأسباد).

وقد دفعه الخوف إلى محاولة التآلف مع هذه الحيوانات، فسعى جاهداً لتبديد خوفه منها، والتَّعايش معها، ومحاورتها، كأسلوب من التَّعويض عن هجر الحياة الاجتماعية قهراً. فقد غدا حيوان الصّحراء مؤنساً للشاعر بالإكراه، ومشاركاً في البعد والضَّياع والتَّشرد، يقول [4] :

عَلامَ تُرى ليلى تُعذِّبُ بالمُنى أَخَا قَفْرَةٍ قَدْ كَادَ بالغُولِ يأْنسُ

وأضحى صديقَ الذِّئبِ بَعدَ عَداوَةٍ وبُغْضٍ وَرَبَّتْهُ القِفَارُ الأمَالِسُ

فالذئب – إذن – جارٌ ومؤنس بالإكراه، ويشارك مع الشاعر العيش في الفلاة، وفي الضَّياع والتَّشرّدِ، والشَّاعر يستأنس به وبعوائه لا حبَّاً له ورغبة فيه، بل شعوراً بالمشاركة في الضَّياع [5]، وهذا ما أكده د. صلاح عبد الحافظ في حديثه عن الأعشى وعن الصِّلة بين الشّاعر والذئب.

وكثيراً ما يختلق الشَّاعر حواراً مع الذّئب وغيره أيضاً، لكسر وحشة المكان، والإحساس بشيء من الطمأنينة، يقول [6] :

---

[1] **ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي: 405/1.**

[2] **الفجاج: ج. فج، وهو الطّريق الواسع في الجبل.**

[3] **الأسباد: ج. سبد، وهو طائر مثل العقاب. ثكلته: فجعت به.**

[4] **ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي: 398/1.**

[5] **الزّمان والمكان وأثرهما في حياة الشَّاعر الجاهلي وشعره، د. صلاح عبد الحافظ: 63/1-64.**

[6] **ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي: 392/1.**

إذا ما عوى جَاوبتُ سَجعَ عُوائِهِ بِترنيمِ مَحزُونٍ يَموتُ ويُنْشَرُ

تَذَلَّلْتُهُ حَتَّى دَنَا وأَلِفْتُهُ وَأَمكنَنِي لو أَنَّني كُنتُ أَغْدِرُ

وقد كثُر الحديث في شعر عبيد بن أيوب عن الجنّ والغول ومصاحبته لهما والتآلف معهما. وهذا يدلّ دلالة جليّة على سلبيَّة المكان، وما خلَّف في نفسه من أوهام، وحالة من عدم التَّوازن والتَّشويش، يقول [1] :

ولله درُّ الغُولِ أيُّ رفيقةٍ لِصاحبِ قَفْرٍ خائفٍ يَتقتَّرُ

ويقول أيضاً [2] :

أخو فلواتٍ حَالفَ الجِنَّ وانْتحى عنِ الإنْسِ حتّى قد تَقَضَّتْ وسائِلُهْ

فشعور الرّهبة والوحشة مرتبط بالمكان القفر المتَّسع؛ عندما يكون الشّخص وحيداً فيه، ومرتبط بسكون الليل كذلك. عندها تتداعى هواجسه، وتتجسّد له الخيالات والأشباح، فيتصوّر أشياء لا وجود لها، ويسمع أصواتاً متوهَّمة؛ وذلك بفعل الخوف المسيطر عليه .

ويزداد الموقف حِدّة حينما يجد الشَّاعر نفسه وحيداً مطروداً ومشرداً، فتتكاثر همومه، وتتكالب عليه هواجس الوحدة، وما تخلّفه من أوهام وتخيلات مقلقة مخيفة.

ومن هنا، كان الحزن طاغياً على شعر عبيد بن أيوب لعدم إحساسه بالانتماء إلى المكان، وعدم إحساسه بالتَّأقلم مع هذا الوسط الغريب عليه، فإحساسه بالجفوة بينه وبين الأرض التي أُبعد إليها تجسَّد بشكل جليٍّ في ثنايا شعره بتكراره الكثير من الألفاظ التي تدلّل على تذمُّره وتململه من المكان، (أخو فلوات، أخو قفرات، قفار، قفرة، لصاحب قفر، وادٍ مخوفٍ).

لقد صوَّر عبيد حياته القاسية المضنية، وما طوى فيها من الأهوال والأخطار، وكيف أنّه كان صابراً على مصاعبها، متحملاً كلَّ معاطبها ومهالكها.

السُّمو على عوامل الخوف:

قد يحاول كلٌّ منا تخطِّي أزماته النَّفسية، حينما تتكالب عليه المصائب والهموم، بأساليب ووسائل تخرجه من واقعه، كي يحافظ على تماسكه وتوازنه، ويصمد في وجه الملمات. و"لا بدّ أن يلجأ الخائف إلى طرق وإجراءات لكي يتخلَّص من مشاعر الخوف التي تستولي عليه، فقد يلجأ إلى الاستسلام أو الهرب أو التَّحدِّي، ويعتمد ذلك على طبيعة المثير للخوف وقدرة الذّات الخائفة على المواجهة والأساليب المتاحة"[3].

والشُّعراء المطاردون عمدوا إلى تأكيد ذواتهم بتحدِّيهم واقعهم وظروفهم القاسية، وحقَّقوا ظفراً عجز عنه البعض. وعبيد بن أيوب أحد هؤلاء الشعراء الذين حاولوا الانتصار على ظروفهم، وحاولوا تجاوز الصِّعاب، والسُّمو على عوامل

[1] **المصدر نفسه: 392/1.**

[2] **المصدر نفسه: 404/1.**

[3] **علم النفس عند فرويد، د. كالفن من هول، ترجمة د. أحمد عبد العزيز سلامة، ود. سيّد أحمد عثمان، مكتبة الأنكلو المصرية، 1967 م: 106.**

الخوف التي فرضها عليهم واقعهم المرير، ليحقّقوا شيئاً من التّوازن والثّبات والاستقرار النّفسيّ. فكثيراً ما نجده يتحدَّث عن ذاته، ويفخر بنفسه"فقد كان إحساسه بالأنا متضخماً حين اختار لنفسه مواجهة كتيبة كبيرة من الفرسان الشجعان، تتقدمهم العيون لتترصَّد موقعه ولتغدر به (فلا ينذر القتل قاتله)، فجعل نفسه قريناً لهؤلاء الأبطال الفرسان، وهي خاصية جيدة يحسُّ المغترب بتميّز خاص لنفسه، يمارس من خلالها الصّفات الإيجابية التي يتمتع بالإحساس بها"[1]. يقول [2]:

وعَاديةٍ تَعدو عليَّ كَثيبةٍ لها سَلَفٌ لا يَنْذَرُ القِتْلَ قاتِلُهْ [3]

فلمَّا التقينا لَمْ يَزَلْ من عَدِيْدِهمْ صَريعُ هواءٍ للتُّرابِ جَحافِلُهْ [4]

ونراه يتحيَّن الفرص ليظهر مزاياه ويذكر محاسنه. وفي هذا محاولة لاستعادة التّماسك النَّفسي، وتحقيق شيء من الثبات والصُّمود في وجه ما يلاقي، يقول [5] :

إمَّا تَرَيْني وسِرْبالي يَطيرُ كمَا طارتْ عَقيقةُ قَرْمٍ غيرِ خَوَّارِ [6]

إنْ يَقتِلُوني فآجالُ الكُماةِ كما خُبِّرْتِ قَتْلٌ وما بالقَتْلِ من عَارِ [7]

فهو غير هيَّاب، لا يخاف مواجهة الأعداء، ويدرك حقيقة أن حياة الأبطال نهايتها الحتمية الموت. والموت أقرب إليهم من غيرهم. وهو من قوم كرام، من أشراف النَّاس الذين ذاع صيتهم في الأمصار، يتحلّون بمكارم الأخلاق. وحينما يفتخر بكونه منهم، وانتسابه إليهم يعني أنه يحمل الشمائل والمكارم ذاتها. يقول [8]:

إنَّا وإنْ كُنَّا أَسنّةَ قَوْمِنا وكانَ لنا فِيهِمْ مقامٌ مقدَّمُ [9]

لنَصْفحُ عن أشياءَ مِنهمْ تُريبُنا ونَصْدِفُ عن ذي الجهلِ مِنهمْ ونحلُمُ [10]

ونمنحُ مِنْهُم مَعْشراً يَحسدُوننا هَنِيَّ عَطاءٍ ليسَ فيهَ تَنَدُّمُ

---

[1] **الاغتراب في الشعر الأموي، د. فاطمة السويدي: 267.**

[2] **أشعار اللصوص وأخبارهم، عبد المعين الملوحي: 225/1.**

[3] **العادية: الخيل العادية. كثيبة: قريبة. القِتل : القرن، والعدو، والجمع أقتال. لا يَنْذَرُ: لا يعلمه، فيحذره.**

[4] **الجحافل: ج. جحفل، وهو السّيد الكريم.**

[5] **ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي: 396/1.**

[6] **السربال: القميص. العقيقة: الوبر. القرم: الفحل من الإبل. غير خوّار: غير ضعيف.**

[7] **الكماة: ج. كمي، وهو الفارس الشاكي السلاح.**

[8] **ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي: 411/1. وقد أشار د. نوري حمودي القيسي إلى أن الابيات نسبت إلى عُبيد بن عُبيد عُبيد بن غاضرة العنبري: (شعراء أمويون: 224/1).**

[9] **أسنة القوم: رؤوسهم. والبيت دخله الخرم.**

[10] **صدف عن الشيء: أعرض عنه.**

ونكلؤُهُمْ بالغَيْبِ مِنَّا حَفيظةً وَأَكبادُنَا وَجْداً عَليهِمْ تَضرَّمُ [1]

سأحملُ عن قومي جميعَ كُلُومِهِمْ وأدفَعُ عنهُمْ كُلَّ غُرْمٍ وأَغْرَمُ [2]

في هذه الأبيات إشباع شديد لصورة (الأنا) التي حاول مجتمعه إنكارها وتشويهها. فهو وأهله من علية القوم، مقامهم مقدَّم بينهم، كرماء يعطون دون تردّد، يصفحون ويعرضون عن جاهلهم، ويحفظون قومهم ويرعونهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ويتحمَّلون جراحاتهم، ويبذلون المال إنقاذاً لهم.

فهو – هنا – يتحدَّث بصيغة الجمع، لأنَّ فكرة الانتماء تلحُّ عليه إلحاحاً شديداً، ويؤرقه الاغتراب والإقصاء عن بني قومه، وهو – في الوقت ذاته – يشير إلى نفسه وكأنَّه يذكر سجاياه، وهذا ما أفصح عنه في البيت الأخير بأسلوب الالتفات من صيغة الجمع إلى صيغة المفرد (سأحمل عن قومي، وأدفع عنهم).

ونراه مستمراً في نهجه هذا، ويكشف عن نواياه الحسنة تجاه قومه وعن توقه للعيش بينهم من جديد، وهذا ما أوحى به تكرار الأفعال المضارعة التي تحمل دلالة الالتزام والاستمرار (لنصفح، نمنح، نصدف، نكلؤهم، سأحمل).

ويتابع حديثه عن نفسه في موضع آخر، محاولاً أن يرفع من شأنه، ويلفت إليه من ظلموه، وتخلّوا عنه، يقول [3] :

أَزاهدةٌ فيَّ الأخلاءُ أنْ رَأَتْ فتى مُطرَداً قَدْ أسلَمَتْهُ قبائِلُهْ [4]

وَقَدْ تَزهَدُ الفِتيانُ في السَّيفِ لم يكنْ كَهاماً ولَمْ تَعْملْ بِغِشٍّ صَياقِلُهْ [5]

تبدو نغمة الأسى واضحة في هذين البيتين، يترجم فيهما الشَّاعر قصته بإيجاز؛ قصة الظّلم الذي وقع عليه نتيجة إجماع القبائل على معاقبته وطرده، وشعوره بمرارة فعلهم هذا، وقد أكّد ذلك بالصيغة الاشتقاقية التي تحمل معنى المبالغة (مطّرداً)، وكذلك صيغة الماضي التي تدل على التَّقرير والإثبات (قد أسلمته قبائله). هنا يلحّ على معنى الطّرد والإقصاء. وهو إذ يذكر (الأخلاّء) إنَّما ليدلّل على عمق ارتباطه بهم على الرَّغم ممَّا فعلوا به، وليشي بخيبة أمله فيهم من خلال الاستفهام الإنكاري الذي يُفضي إلى هذا المعنى (أزاهدةٌ فيَّ الأخلاّءُ).

في غمرة هذا الألم والإحساس بالخذلان، يقف عبيد بن أيوب مذكِّراً هؤلاء بشمائله، مفتخراً بنفسه، ليخفِّف من حالة التّوتر والقلق التي يعانيها. فهو كالسَّيف القاطع الذي لا ينبو، ولا تخطئ ضربته، إنَّه فارس شجاع، لا يُشقُّ له غبار، فكيف – إذن – رغب عنه بنو قومه وأخلاؤه، وأسلموه إلى هذه المفازات الموحشة دون رأفة أو شفقة. فهو كالسّيف الذي لا تخفى علينا رمزيته؛ إذ يرمز إلى القوَّة والشَّجاعة، والإحساس بالأمان والغلبة.

---

[1] **نكلؤهم: نحفظهم ونرعاهم.**

[2] **الكلوم: الجروح، أراد جراحات قومه. الغرم: ما يلزم أداؤه من المال.**

[3] **أشعار اللصوص وأخبارهم، عبد المعين الملوحي: 227/1. وديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي: 406/1.**

[4] **زهد في الشيء: رغب عنه.**

[5] **سيف كهام: لا يقطعُ. صقل السيف: جلاه.**

وغير هذا، فقد كان عبيد بن أيوب يتحدث عن مغامراته في تلك الصّحاري المترامية الأطراف ، فالسَّير في هذه المفازات والتَّنقل في مجاهلها تأكيد واضح على الشَّجاعة التي يتَّصف بها؛ لذلك نجده يكثر من حديثه عن هذا الأمر ليسمو على ما يعتمل في نفسه من مشاعر الخوف والرُّعب.

أضف إلى ذلك أنَّه أفاضَ الحديثَ عن محالفته وحوش الصحراء، لإحساسه الشّديد بالضَّياع والوحدة وعدم الأمان، فجعل من هذه الحيوانات بدائل عيش جماعي، واتّخذها أنيساً له ليبدِّد خوفه وهلعه، يقول [1] :

وحالَفْتُ الوحوشَ وحَالَفتني بقُربِ عُهودِهِنَّ وبالبِعَادِ

ويقول أيضاً [2] :

عَلامَ تُرى ليلى تُعذِّبُ بالمُنى أَخَا قَفْرَةٍ قَدْ كَادَ بالغُولِ يأْنسُ

وأضحى صديقَ الذِّئبِ بَعدَ عَداوَةٍ وبُغْضٍ وَرَبَّتْهُ القِفَارُ الأمَالِسُ

وفي غمرة اليأس والإحساس بالقنوط، قد يلجأ الشاعر بذاكرته إلى الماضي، يستوقفه مستذكراً أجمل ما فيه، كي يضيء بارقة أمل في نفسه المنكسرة. ولعلّ ذكر المرأة من صفحات الماضي المشرقة في حياة الشاعر، التي يعود إليها بذاكرته كلّما ضاقت به الدُّنيا، وأطبقت عليه بهمومها ومصائبها. فنراه يستحضر طيفها استئناساً به، كي يجلو عنه ظلمات اليأس والحرمان، وينقله إلى دنيا سعيدة ولَّت بذكرياتها الجميلة، واستحالت من الماضي البعيد. وهذا ما أكده د. يوسف خليف في حديث الطّيف في شعر ذي الرّمّة[3].

فعندما تستبد الهموم بقلب الشّاعر يلجأ إلى الطَّيف تسرية للنَّفس. فعبيد بن أيوب يتوق شوقاً وحنيناً إلى الأهل والأحبة، فيغرق في بحر من الأحلام التي ينشد من خلالها إرواء ظمئه، والتّخفيف من حدّة معاناته، يقول [4]:

أَلَمَّ خَيالٌ من أُميمةَ طارقٌ وقَدْ تَليتْ من آخرِ اللَّيلِ غُبَّرُ [5]

فيا فَرَحاً لِلمُدلِجِ الزَّائرِ الذي أتانيَ في ريطاتِهِ يَتَبَخْتَرُ [6]

فَثَرْتُ وقَلْبي مُقْصَدٌ للذي به وَعَينيَّ أَحياناً تَجِمُّ فَتَغْمِرُ [7]

إلى نَاعجٍ أمَّا أعالي عِظامِهِ فَشُمٌّ وسُفلاها على الأرضِ تمهرُ [1]

---

[1] **ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي: 391/1.**

[2] **المصدر نفسه: 398/1.**

[3] **ذو الرّمّة شاعر الحبّ والصّحراء، د. يوسف خليف، دار المعارف، مصر، د.ت: 127.**

[4] **ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي: 393/1-394.**

[5] **الطّارق: الذي يطرق ليلاً؛ أي يأتي.**

[6] **المدلج: الآتي ليلاً. الرّيطات: ج. ريطة، وهي الملاءة البيضاء.**

[7] **ثرت: وثبت. قلب مقصد: معمود بالحبّ. تجمّ عينه: يكثر دمعها.**

فَقُلْتُ لهُ قولاً وحادثتُ شَدَّهُ بأعوادِ مَيسٍ نَقْشُهُنَّ مُحَبَّرُ [2]

أَيا جَمَلي إنْ أنتَ زُرْتَ بلادَها بِرَحْلِي وَأَجلادِي فأَنتَ مُحرَّرُ [3]

وكيفَ تُرجِّيها وقد حَالَ دُونَها مِنَ الأَرضِ مَخْشِيُّ التَّنَائِفِ مُذْعِرُ [4]

إنَّ دواعي الحنين فجّرت في قلبه نوازع الشَّوق ومواطن الغربة، ولواعج الحبِّ، فعبّر عن مشاعره بالسَّردِ المشوِّق الذي يفصح من خلاله الشَّاعر عن تجربته الذاتية، ومعاناته النَّفسية، من خلال مجموعة من العناصر التي تقوم عليها البنية السَّرديّة في هذه اللوحة الطّيفية.

مشاعر شتَّى تتنازع نفس الشَّاعر هنا، فنراه يبدي فرحه بقدوم هذا الطّارق الذي جاءه يتبختر في أبهى حلله. فهو يقرّ بوقوع الحدث بصيغ الماضي المتتالية، التي تؤكد ذلك (ألمَّ خيالٌ، أتاني يتبختر). ويحدِّد زمن زيارته ليلاً، بسياق الكلام الذي يكرّره في هذا المعنى (ألمَّ خيال طارق، تليتْ من آخر الليل غبّر، فيا فرحاً للمدلج). ونراه يحسن انتقاء الألفاظ التي توحي بالفرح الغامر الذي أصاب قلبه، إثر قدوم هذا الزّائر والطّريد كالصّعلوك "فالصُّعلوك الطَّريد يتعامل مع طيف المرأة بكثير من الفرح والاستبشار، يكتنفه الأمل باللقاء، وإن كان بؤس الواقع يرتد به، ولكن الأمل يظلُّ قائماً"[5].

ويدفعه شوقه الشَّديد للوصول إليها، لذلك يضفي صفات القوَّة والسُّرعة على جَمله الذي سيحمله إلى ديار المحبوبة، ويعقد حواراً معه، يخاطبه ويمنِّيه بالحريَّة إنْ هو وصل به إلى ديارها. والحوار – هنا – يضفي شيئاً من الحيويّة على النصِّ الشِّعري، ويعمد الشَّاعر إلى خلقه – أحياناً – طلباً للاستئناس، ودفعاً للوحشة التي يشعر بها.

وفي نهاية المطاف، يستفيق الشَّاعر من هذا الحلم الجميل، فتعتريه – ثانية – مشاعر اليأس والقنوط، لأنّه يعرف حقَّ المعرفة أن لا أمل بلقاء المحبوبة، ولا أمل في الوصول إليها، وكيف ذلك وقد حال المكان – ببعده وأهواله – دون لقائهما. وينهض الاستفهام – هنا – ليشي بالاستنكار والتَّعجب (وكيف ترجيها)، ويحمل أيضاً الكثير من خيبة الأمل والقنوط. فعبيد بن أيوب نسج قصّته بأسلوب سرديّ، تنوّع بين خبري وإنشائي، كما تناوبت جمله الفعلية والاسمية، وهذا يوحي بالاضطراب النَّفسي الذي يعانيه الشَّاعر.

ومن هنا، فإنَّ استحضار الطَّيف محاولة للهروب من واقع مؤلم والانعتاق من الحاضر المعيش في رحلة في المكان، يسرح فيها خيال الشّاعر في مخزون الذاكرة، يستوقف اللحظات السَّعيدة، يعيشها ولو آنياً لينتقل من حالة إلى حالة. ولكنّ "الشاعر يشقى في محاولة التَّماسك؛ إذ يستعيد الماضي الثّر لمواجهة الحاضر المقفر، ولكنّ غصَّة الوجع تأبى إلاّ أن تظهر، على الرُّغم من محاولاته إخفاءها"[6].

---

[1] **النَّاعج: السَّريع من الإبل. شمٌّ: مرتفعة.**

[2] **الميس: شجر صلبٌ تعمل منه رحال الإبل. محبَّر: مزيَّن، موشّى.**

[3] **أجلاد الإنسان: جسمه وبدنه.**

[4] **ترجّيها: ترتجي زيارتها والوصول إليها. التنائف: ج. التنوفة، القفر من الأرض. مخشي: يخشى دخولها لهولها.**

[5] **الاغتراب في الشعر الأموي، د. فاطمة السويدي: 129.**

[6] **دراسات في الشعر الإسلامي والأموي، د. عدنان أحمد، وزارة الثقافة، دمشق، 2018 م: 188–189.**

ولعلَّ التّوبة والرُّجوع إلى الله من أنجع الأساليب التي كان يلجأ إليها عبيد بن أيوب، ليسمو على هذه المشاعر المضطربة التي ولّدها الخوف في نفسه. فهذه الحياة التي يعيشها بعبثيتها وتفاهتها جعلته يفكّر ملياً، ويفزع تائباً إلى الله، داعياً طالباً العفو والمغفرة، لإدراكه أنَّ الخلود لن يكون إلاّ في الحياة الآخرة، وفي نيل عفو الرحمن ورضاه، يقول [1]:

يا ربِّ عفوَكَ عن ذي تَوبةٍ وَجِلٍ كأنَّهُ من حِذارِ النَّاسِ مَجنونُ

قد كانَ قَدَّمَ أَعمالاً مقارِبَةً أَيَّامَ لَيْسَ لَهُ عَقْلٌ ولا دِيْنُ

إنَّه إحساس بالنّدم على ما قدّم من أعمال طائشة أيام جهله، حين لم يكن يردعه عقل ولا دين، فبدأ يستغفر الله، ويرجو عفوه، وهنا صحوة دينية، وخروج من الخوف إلى الرَّجاء، والدُّخول في معيَّة الله، والإحساس بالأمن بقربه منه، وهذا يشي به أسلوب النداء (يا ربِّ)، كما يدلّل الفعل المقدَّر المحذوف على معنى التذلّل والرَّجاء بقوله (عفوك)؛ أي أرجو عفوك.

ونراه في أبيات أخرى يدفع التُّهم عن نفسه، ويرد على من كادوا له، واجتهدوا في اتهامه، يقول [2] :

يا ربِّ قدْ حَلفَ الأعداءُ واجْتهدوا أيمانَهُمْ أنَّني من ساكني النَّارِ

أَيحلفونَ على عَمياءَ وَيْحَهُمُ ما عِلمُهُمْ بعظيمِ العَفوِ غفَّارِ [3]

إنِّي لأرجُو من الرَّحمنِ مغفرةً ومِنَّةً مِنْ قِوامِ الدِّينِ جبَّارِ [4]

هنا تتَّسم نبرة استغفار الشّاعر بالأمل، ومحاولة إقناع هؤلاء المتَّهمين ببراءته، ودفع التُّهم عن نفسه، مؤكِّداً أنّ عفو الله ومغفرته أشمل من نظرتهم المحدودة. وهذه ثقة وضّحها من خلال تكرار بعض الألفاظ التي توحي بمعنى العفو والمغفرة، وكذلك توالي صيغ الاشتقاق التي تفيد الكثرة والمبالغة، وتوحي أنّ باب العفو عند ربِّ العالمين واسع لا يغلق (عظيم، غفور، غفّار، جبّار، مغفرة).

مناجاة تحمل الكثير من الأسى والإحساس بالظُّلم، واللجوء إلى الله القادر الجبَّار يشعرنا بمدى ضعفه، وحاجته إلى القرب منه سبحانه وتعالى، فنستشعر حسرة الشّكوى في ندائه، والحاجة إلى من يعينه؛ وفي النّداء تنبيه للمدعو ليقبل عليه (يا ربّ)، والأداة (يا) تستعمل لنداء القريب والبعيد، وتحمل – هنا – معنى الاستغاثة والتّعجّب [5]. وكذلك نستشعر نستشعر الألم الممضّ من الذين افتروا عليه، واتّهموه ظلماً، بل اجتهدوا في ذلك، ويتّضح حجم الأسى من إلحاحه على

---

[1] **ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي: 412/1-413.**

[2] **المصدر نفسه: 396/1-397.**

[3] **العمياء: التي لا طريق فيها، أراد المجهول.**

[4] **المنّة: الإحسان والنعم.**

[5] **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، جمال الدين بن هشام الأنصاري، حققه د. مازن المبارك ومحمد علي حمدالله، دار الفكر، بيروت، ط1979م: 488 .**

وأساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، د. قيس إسماعيل الأوسي، جامعة بغداد، بيت الحكمة، د.ت: 224.

تكرار هذا المعنى (قد حلف، اجتهدوا، أيحلفون)، وكذلك حمل الاستفهام الإنكاري استياءه منهم أيضاً، فنراه"يقيم الحجة على الشامتين به، والمخوفين له بأنَّ مصيره إلى الجحيم، مسفِّهاً لرأيهم، ومؤمناً بأنَّهم يفتون بما لا علم لهم به"[1]؛ لذلك جأر بالشّكوى إلى ربِّه الذي يعلم ما لحق به من ظلم وافتراء، ويعلم سرائر النُّفوس، عنده العفو، ومنه يرتجي المغفرة، إن كان أخطأ، أو زلَّ.

الخاتمة:

نخلص إلى أن الخوف أصبح ظاهرة متميزة في شعر عبيد بن أيوب العنبري، لازمه طيلة حياته، وتجلّى في مظاهر عدَّة؛ فصوَّر خوفه من السُّلطة السياسية، مما حداه إلى المطاردة، ومن ثمّ التّشرد. هذا الإقصاء خلّف في نفسه خوفاً وقلقاً، وشعوراً بالوحدة الموحشة، وحنيناً إلى الأهل والديار. ممّا جعل إحساساً بالاغتراب يسيطر عليه، ويتجسد في شعره.

وتجلّى خوفه من الزّمن والدّهر بتوجسه من نوائبه ورزاياه، وأقلقه الموت والتّفكير بالمصير المحتوم.

وتبلورت سطوة المكان عليه من خلال عدم شعوره بالانتماء الاجتماعي، فأضحى المكان وسطاً يثير الخوف والهلع في نفسه أيضاً، وكوّن إزاءه موقفاً سلبياً، عزَّز شعوره بالاغتراب الشّديد. وهذا الإحساس بالجفوة بينه وبين الأرض التي أُبعد إليها تجلّى بوضوح في أساليبه الفنّية.

وقد حاول عبيد بن أيوب – كغيره من الصَّعاليك – تخطّي أزماته النَّفسية، والسّمو على عوامل الخوف بأساليب ووسائل عدّة، كي يصمد في وجه الملمات، فكان يكثر الحديث عن نفسه، يمجّد قدراته، ويثبت ذاته، دفعاً لإحساسه بالخذلان، وتأكيد مكانته. وقد أفاضَ الحديث عن مغامراته، وعن محالفته وحوش الصّحراء لإحساسه المتنامي بالضّياع والوحدة.

وغير هذا، فقد شكّل الماضي نقطة مضيئة في حياته، فكان يستدعي الذكريات الجميلة، ويستحضر طيف المرأة تسرية لنفسه، وهروباً من واقع مثقل بالخوف والهلع.

وفي غمرة اليأس والقنوط لم يجد عبيد بن أيوب أرحم من الله يلوذ ببابه، ويتّجه إليه بالدّعاء والرّجاء، وبهذا ينشد الأمان، ويسمو على عوامل الخوف التي تعتريه.

ومن الملاحظ أنَّ هذه الظروف القاهرة التي عاشها الشاعر أثّرت في تجربته الشّعرية، وفجّرت لغته بطاقة مستمدة من عجزه الجسدي، فعبّر بعفوية عن معاناته، ممّا وسم شعره بالسّرعة الفنّية، مبتعداً عن التّكلّف والتّصنّع، فقد ألهته حياته المتشرّدة عن صنع الشِّعر، والنَّظر فيه. وجاءت تراكيبه المعبِّرة، وألفاظه الموحية، لتدلِّل على نفسية خاصة، وتبرز قدرة الشّاعر وتفوّقه. وجنح بعباراته إلى السّهولة، وابتعد بألفاظه عن الغرابة. واتّبع أسلوب السرد القصصي المشوّق الذي تبلورت فيه بعض عناصر القصِّ بوضوح. وعبَّرت أساليب الصّياغة الفنيَّة التي اتّكأ عليها عن الحالة النَّفسيَّة للشّاعر، فقد كثرت أساليب التَّكرار والتّوكيد والتّقرير والاستفهام. وقلّت لديه الصُّور البيانية بشكل لافت. ولم يحفل شعره بألوان البديع إلاّ نادراً، وهذا كلّه وسم شعره بالواقعية المتجلِّية بالوحدة النَّفسية الشُّعورية التي كنا نتلمسها في قصائده ومقطّعاته.

[1] **الشّعراء الصّعاليك في العصر الأموي، د. حسين عطوان، دار المعارف، مصر، د.ت: 136.**

المصادر والمراجع

1- أحمد، د. عدنان، دراسات في الشعر الإسلامي والأموي، وزارة الثقافة، دمشق، 2018 م،ص263.

2- الأنصاري، جمال الدين بن هشام ، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، حققه د. مازن المبارك ومحمد علي حمدالله، دار الفكر، بيروت، ط1979م، ص1013.

3- الأوسي، د. قيس إسماعيل ، أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، جامعة بغداد، بيت الحكمة، د.ت، ص607 .

4- بابتي، د. عزيزة فوال، معجم الشعراء المخضرمين والأمويين، دار صادر، بيروت، ط1، 1998، ص591.

5- البكري، أبو عبيد، سمط اللآلي في شرح أمالي القالي وذيل الأمالي، تحقيق عبد العزيز الميمني، دار الحديث، بيروت، ط2، 1984 م، ص1133.

6- د. بنت الشاطئ، قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، دار المعارف، مصر، 1970 م، ص286.

7- الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة البابي الحلبي، ط2، 1965، ص520.

8- خليف، د. يوسف، ذو الرّمّة شاعر الحبّ والصّحراء، دار المعارف، مصر، د.ت،ص455.

9- رومية، د. وهب، شعرنا القديم والنقد الجديد، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1996 م، ص374.

10- الزير، د. محمد بن حسن، الحياة والموت في الشعر الأموي، دار أميَّة للنشر، الرياض، د.ت،ص646.

11- السويدي، د. فاطمة، الاغتراب في الشعر الأموي، مكتبة مدبولي، مصر، ط1، 1997 م، ص522.

12- طريفي، د. محمد نبيل، ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004 م، ص416.

13- عبد الحافظ، د. صلاح، الزّمان والمكان وأثرهما في حياة الشَّاعر الجاهلي وشعره، دار المعارف، مصر، د.ت، ص375.

14- عبد الله، محمد صادق، خصوبة القصيدة الجاهلية ومعانيها المتجدِّدة، دراسة وتحليل ونقد، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.ص607.

15- عطوان، د. حسين، الشّعراء الصّعاليك في العصر الأموي، دار المعارف، مصر، د.ت،ص207.

16- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، 2003 م، ص1024.

17- القيسي، د. نوري حمودي، شعراء أمويون، جامعة بغداد، 1976 م، ص322.

18- ابن المبارك، منتهى الطلب من أشعار العرب، تحقيق د. نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط1، 1999م، ص812.

19- الملوحي، عبد المعين، أشعار اللصوص وأخبارهم، دار الحضارة الجديدة، بيروت، ط1، 1993 م، ص326 .

20- من هول، د. كالفن، علم النَّفس عند فرويد، ترجمة د. أحمد عبد العزيز سلامة، ود. سيّد أحمد عثمان، مكتبة الأنكلو المصرية، 1967 م، ص160.